إشكالات الأسلوبية في التجربة النقدية المعاصرة

د/ تاوريريت بشير
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر – بسكرة (الجزائر)

الملخص:

يقف القارئ في هذه الدراسة نقدية عند أهم الإشكالات النظرية الإجراءات التي اعترت عالم لأسلوبية من حيث هي تجربة نقدية تطفلة،تقتاتعلى عطاءات نقدية أخرى حدر من عطاءات المد اللساني في سورته السوسيرية،حيث يتناول باحث بالشرح والتعليق ممل الآراء نقدية المنددة بعالم النقد الأسلوبي مارسة وتنظيرا، وذلك من خلال سريحات النقاد الغربيين و العرب من أولئك نذكر: غريماس وميشال يفي وبيار جيرو وشارل بالي وسعد صلوح وعبد السلام المسدي وسمير ميد...الخ

Résumé:

Cette étude critique porte sur les plus importantes problématique théorique et opérationnelles qui ont dominé l'univers (le monde) de la stylistique.Cette dernière est considérée ici en tant qu'expérience critique intruse nourrie elle-même d'autre ressources critiques issues des prolongement linguistique à la l'image saussurienne .

Ainsi, les diverses opinions critique dans le contexte de la critique stylistique sont expliquées et commentées en théorie et en pratique à travers les assertions d'autre critique occidentaux et arabe contemporains comme : Greimas, Michel Arrivé , Pierre Giroux, Charles Balley, Saâd Maslouh, Abdessalem Al-Mesdi, Samir Said ....ect.

إشكالات

الواقـع أن الأسـلوبية التـي ضـاع صـيتها في الستينيات -لدى الغربييـن- كـاد أن يسدل عليها ستار النسيان، وهذا ما تؤكده تصريحات النقاد الغربيين أنفسهم بزوالها، فغريماس مثلا أكد فكرة زوالها ، وقد أعرب عن القلق الحاد الذي يساوره حالما تذكر الأسلوبية [1].

بـل إن ميشـال أريفـي (Michel arivé) لم يتردد في « إلحاق الأسلوبية بالسيميائية وإدماجها فيها ، مما جعل الأسلوبية منذ سنة 1965 لا تمارس البحوث فيها على أنها علم مستقل من علوم اللسان الأخرى » [2] ، فـثمة تشـابه كبـير بين المبادئ والمفاهيم التي تعتمدها كل من السيميائية والأسـلوبية ، لأن كلـيهما اتكـأ على عطاءات المد اللساني ، ولما كانت السيميائية أخصب عطاء من الأسلوبية قرر " ميشال أريفي" إلحاق الأسلوبية بهـا ، وإن كان أريفي قد دعا إلى الإعراض عن الأسلوبية على ألا تشغل حـيزا من الممارسة الاجرائية مثلها في ذلك مثل باقي العلوم اللسانية ، فإن اتكـاء الأسلوبية على مفاهيم لسانية هو الذي زاد من درجة تأزمها ، لأن « الكثير من التصانيف اللسانية هي ترجمة أشبه بتأليف أو تأليف أشبه بترجمة وفي مثل هذه الأعمال إثم كبير ومنافع للناس . بيـد أن إثمها – فيما نرى- أكـبر من نفعها لما تنطوي عليه في الغالب من تعفية على الأصول وتشويه لها . من عقد الصلة بين الأفكار لأدنى ملابسة ، واستفزاز لها من سياقها العلمـي والثقافي على نحو يجعلها غير منتجة أو فاعلة ، ومن تلفيق ظاهر في أكثر الأحيان بين معطيات العلم الوافد والعلم الموروث» [3].

كما يرى سعد مصلوح وهي وجهة نظر صائبة إلى حد ما لأن المزاوجة بين الأسلوبية كادت تكون مفيدة لولا استثمار الأسلوبية – بشقيها النظري والإجرائي – لمفاهيم ومصطلحات لسانية مغلوطة ومجتثة من أصلها الوضعي اجتثاثا، أدى إلى تشويهها وتزييفها ليس إلا .

ولم يكتف سعد مصلوح في توصيفه النقدي بنقد المرجعية اللسانية لعلم الأسلوبية فحسب ، بل نجده قد سلط الأضواء على تلك الجداول الإحصائية التي لم تعد تجدي نفعا أمام تبرعم جمال النص « من مظاهر هذه القصور أن الباحثين يعنون أنفسهم بتقديم عشرات الجداول إحصائية يضمنونها نتائج بحوثهم ، ومع ذلك تأتي عديمة الجدوى ، خالية من كل تحليل ذي قيمة للبيانات ، ولا شك أن مثل هذا العمل باهض التكاليف ومحدود النفع في آن معا » [4] ، فلما كانت الظاهرة الأدبية ظاهرة فنية بامتياز وحقيقتها هي حقيقة مطلقة ، بل سابحة في فضاء اللامحدود ، على هذا الأساس أبطل سعد مصلوح إخضاع الظاهرة الأدبية إلى معادلات إحصائية مادامت الظاهرة الأدبية ليست ظاهرة كمية ، ومن ثمة فإنها تعلن تمردها من دون شك على الأقيسة أو القواعد الجاهزة .

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الإشكاليات إشكاليات أخرى تنبع من الأطر النظرية أو من الآفاق التي تطرحا النظرية الأسلوبية ذاتها ، لنلحظ مدى مصداقية تصورها عن الظاهرة الأدبية انطلاقا من المفهوم ذاته، فإذا كانت الأسلوبية قد اتخذت من خاصية الانزياح (الانحراف) دعامة أساسية لها ، وعلامة في التميز بين مختلف الأساليب فذلك هو سر الشعرية فيها وإن محاولة تصور الأسلوب كانحراف عن قاعدة خارجة عن النص هو ابتعاد متعمد من قبل المؤلف لتحقيق أغراض جمالية وذلك في تقديرنا منحى إيجابي من شأنه ألا يقيد من حرية المبدع، ولكن سرعان ما يذوب

هـذا الملمح الإيجابي في الوقت الذي نجد فيه نصوصا بلا أسلوب حينما نحـتكم إلى هذه الخاصية ، لأن هناك نصوصا لا تنحرف عن قاعدة ما ، كمـا يصـعب أيضـا تحديـد كل من القاعدة والانحراف بالدقة العلمية المنشـودة ، وفـي ضوء هذه الخاصية يتم التعرف على الأسلوب تعرفا سـلبيا دون أن يكون هذا التعرف نابعا من خواصه الجمالية ، حتى وإن سـلمنا بهاتـه الخاصـية فإن تسليمنا بها يصدق على التجارب الشعرية الحداثـية المتميزة وإن سلمنا بهاته الخاصية فإن تسليمنا بها يصدق على الـتجارب الشـعرية الحداثية ، المتميزة والمتفردة وفي ذلك إقصاء لقسم أكبر من شعريتنا العربية .

هـذا علاوة على وجود انحرافات لا يترتب عليها أي تأثير أسلوبي كالأخطاء اللغوية و الإملائية ...الخ هناك عناصر لغوية ذات أهمية أسلوبية دون أن تكون خروجا من القواعد المتعمدة .

وفي ظل الانحراف يتم إهمال عناصر التواصل (المؤلف والقارئ) هذا بغض الـنظر عن سلبيات الانحراف في مستواه الإجرائي ولعل هذه المآخذ هي التي جعلـت محمـد عزام يقول : « أخطر ما يترتب على تطبيق هذه النظرية في تفسـير النصوص الأدبية، هو الاعتداد بالملامح الأسلوبية القليلة المميزة وغير المستعملة عادة ، وإهمال بقية ملامح النص وبنيته الأساسية » [5].

و أما مشكلة الأسلوبية على المستوى الوظيفي والسياقي فإن أول نقطة في خطـوات التحليل الأسلوبي هي اختيار معدلات التكرار للعناصر اللغوية (الكلمات المفاتـيح) فـي السـياقات المختلفة ، فإذا كانت شديدة التشابه والقرب من بعضها تعـرض البحث لخطر عدم إمكانية العثور على الملامح الأسلوبية المختفية خلف الـبدائل ، وإذا كانـت العلاقة نصية شديدة البعد فمن الممكن ألا تؤدي المقارنة إلا

إلـــى نتائج تافهة ، من هنا فإن المقارنات المبدئية للأسلوب تتزايد صعوبتها وتتفاقم كلما كانت نصوصها شديدة التشابه أو الاختلاف .

وانطلاقـــا مـــن حجم هذه الإشكاليات وما يعتريها من تحجيم للنص الشـــعري استطاعت السيميائية أن تكبح جماح الأسلوبية وتنتصر عليها بعد أن نافســـتها ، والســـر في انطفاء نجم الأسلوبية يعود إلى قصور تصورها وهـــو القصور الذي تعاني منه السيميائية ذاتها ، ولكن الغلبة كانت لما هو أشـــد قصورا ، وهذا ما يفسر مأزق الأسلوبية والسيميائية على حد سواء ، فترى: هل استطاعت التفكيكية أن تتخلص من مثل هذه المآزق ؟.

وتفتقر الأسلوبية لمنهج واضح ويتمظهر ذلك في تداخلها من البنيوية نفسها كمـــنهج اتضـــحت معالمه نسبيا ، علاوة على ذوبان ملامحها في الحقل السيميائي واتكائهـــا على الإحصائي كما سبق وأن بينا ، يضاف إلى ذلك اتكاؤها على مفاهيم ثانوية القيمة (الانزياح (الانحراف) ، الكلمات المفاتيح ، إمكانات النحو)، فهي تذوب في الكثير من الأحيان إجرائيا في معالم المناهج الأخرى ، وهذا ما يفقدها شخصيتها.

ويتجلى ذوبان الملامح الأسلوبية داخل المنهج البنيوي بكل حيثياته ، فـــي الدراسة التي قدمها عبد الحميـــد بوزوينـــة في كتابه « بناء الأسلوب فـــي المقالة عند الإبراهيمي » [6] ، هذا فضلا عن استعانة الباحث بالجداول الاحصـــائية عســـى أن يكون لهذا الدأب نصيب جمالي ، ولكن هيهات ... وهـــناك مـــن الباحثيـــن مـــن عمل على تذويب ملامح الأسلوبية بمفهومها المعاصر في ملامح الدراسة اللغوية التقليدية وبخاصة البنية النحوية ، حيث « يتـــبوأ المصـــطلح النحوي القديم المكانة الأولى (الجملة الطلبية) ، الجملة الشـــرطية ، الجملة ذات الوظائف ، فضلا عن تفرعات كل نمط جملي وفي

ذلك التباس بين هويتين معرفتين ...» [7] ، وهذا في المحاولة التي تقدم بها رابح بوحوش في « البنية اللغوية لبردة البوصيري»

إن هـذه الشـواهد تؤكـد للعـيان ضبابية وتغريبة النهج الأسلوبي (الأسـلوبية العملـية)، وذلك حينما تتبخر ملامحها على المستوى الإجرائي بتوزيعها على حقول منهجية أخرى، والسؤال الذي نطرحه : هل في إمكاننا تأسيس أسلوبية عربية وسط هذه الفوضى النقدية الغربية الحائرة ؟!!.

إن نقطة الاستثناء الوحيدة التي تجعلنا لا نقيم حبل القطيعة مع الأسلوبية هـو تميزها عن البنيوية في التركيز على شخصية المؤلف ، وهو التركيز الذي نعـده خطوة شبه إيجابية في التحليل الأسلوبي ، فالأسلوبية قد تتجاوز النص إلى نفسـية صـاحبه ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالأسلوبية التكوينية ، في حين أن البنيوية تكتفي بالإعلاء من سلطة النص والاقرار بموت المؤلف،الموت الذي ذاع صيته في النهج التفكيكي كما سنرى فيما بعد في تحليل بارث [8].

نعود إلى قضية غياب الملامح الأسلوبية في غمرة المناهج الأخرى ويمـثل هـذه المـرة لذاك الغياب بواحد من أهرامات الأسلوبية في وطننا العربـي ، إنـه عبد السلام المسدي في بحثه التطبيقي « التضافر الأسلوبي وإبداعية الشعر ، نموذج ولد الهدى » وتأثر -كذلك- في بحثه « مفاعلات الأبنـية اللغوية والمقولات الشخصانية في الشعر المتنبي » في سنة 1978 .بالبنـيوية التـي تعمـل على إبراز الثنائيات المتقابلة على مستوى الألفاظ ودلالتها في النصوص المدروسة ، وخاصة عند رومان جاكبسون حتى إنه استخدم المصطلحات (إتحادات ، تعارضات) ذاتها التي استخدمها جاكبسون، وبـرغم هذا التأثر تبقى دراسة المسدي تتميز بشيء من المرونة والحركية،

بـــل بـــثقافة غزيـــرة ، جعلته يحول ما يأخذه إلى جزء أساسي من دورته الدموية .

وبرغم هذه التجارب الأسلوبية الرائدة للمسدي إلا أنه نفى أن تؤول الأســـلوبية إلى نظرية نقدية شاملة لكل أبعاد الظاهرة الأدبية ، فضلا من أن تطمـــح إلى نقض النقد الأدبي أصوليا ، وبناء على ذلك والقول للناقد ، إنها تمسك عن الحكم في شأن الأدب من حيث رسالته – فهي قاصرة عن تخطي حواجـــز التحليل – التي تقيم الأثر الأدبي والاحتكام إلى التاريخ بينما رسالة الـــنقد كامنة في إماطة اللثام عن رسالة الأدب ، ففي النقد إذن بعض ما في الأســـلوبية وزيادة في الأسلوبية إلا بعضه [9] ، فالأسلوبية من هذا المنظور معـــيار موضـــوعي لنقد الأدب ،ولعلها تغنم كل الغنم إذا استلهمت معطيات علم الدلالة الذي يأخذ بعين الاعتبار مضمون الرسالة ونسيجها اللغوي .

إن هـــذا الوعي بخطورة التحليل الأسلوبي جعل عبد السلام المسدي – فـــي الآونة الأخيرة– لا يتقيد بمنهجية أسلوبية واضحـــة وهذا ما يتضح للعيان في دراسته لقصيدة « ولد الهدى » ، حيث يخلط خلطا عشوائيا بين ملامـــح الأســـلوبية والإجراء الإحصائي [10] ، ويتمظهر ذلك في جملة من الجـــداول الإحصـــائية والقياســـات الرياضـــية الصارمة ، لا تلتقي أبدا مع الأبجديات الجمالية والمعرفية للنص الشعري في الشيء .

إن رفضـــنا للإجراء الإحصائي ينبع أساسا من أن الإحصاء هو ظاهرة كمية لا تلتقي مع الظاهرة الأدبية بوصفها ظاهرة كيفية ، ولذلك نجد " بيار جيرو " يثور ضد الإجراء الإحصائي فيقول « يخلط الإحصائيون غالبا بين الكم والنوع ، ولـــم ينجحوا حتى يومنا هذا في تحديد العلاقة الوظيفية بين المستويين ، ولهذا

السبب شكلت تحليلاتهم جداول حزينة من العوامل والانزياحات العددية لا يظهر معـناها وإذا ظهر كان مفرطا وساذجا في نظر كل أولئك الذين يكرهون أن يقننوا القيم الجمالية في مجرد علاقات كمية » [11].

إن هـذه الجـداول الحزينة التي أدت إلى وأد المعنى الجمالي للنصوص ودفنه داخل هياكل رياضية جامدة هو ما جعل " د.سمير سعيد " ينفذ وبروح نقدية عالية للدراسة التي قام بها محمد عبد المطلب لديوان " سويلم " من زاوية أسلوبية ، اعـتقادا مـنه أن أخصـب منطقة في الديوان هي منطقة النفي ، وأن الآلية التي تسـتطيع اقتناص الروح الجمالي الدفين في هذا الديوان هي آلية المنهج الإحصائي بوصـفه وسـيلة فعالة ، فهذا المنهج في رأي سمير سعيد هو طريق يوصلنا إلى إطـلاق التعمـيمات وإلى التصنيف الذي يقوم بعملية وصف علمي دقيق ومنظم للـتواتر القائم في شعر سويلم . وبرغم نجاعة هذه المحاولة إلا أن خطواتها بمعنى ما ليست علمية لسببين ، الأول اعتمادها على نظرة وحيدة الجانب للنص الشعري ، والثاني إهمالها مبدأ تضافر العلوم في سبيل الكشف عن دلالة ذلك النص .

ويـرى سمير سعيد أن هذا التقصير مرده إلى شيئين أحدهما مفهوم محمـد عبد المطلب للنص الشعري ، وثانيهما مفهومه للمنهج الذي يعالج به ذلـك الـنص ، فمفهومه للأول على أنه مجموعة أجزاء نحوية ليست على علاقة دالة بمجمل بناء ومعاني النص . وأما عن الثاني فهو يفهمه على أنه أسـلوب كمي يبحث في تكرار الظواهر النحوية ،وليس على علاقة بالمنهج الكيفي . وكان باستطاعة الناقد أن يهتم بالبحث في العلاقة بين الأجزاء بنية النفي وبنية الكل الدينامي للقصيدة [12] .

وفـي تقديرنا أن الانغلاق الذي شهدته الدائرة الأسلوبية مرده ، إلى أن عقليات الأسلوبيين ومناهجهم يغلب عليها الطابع الموضوعي الرياضي حتى إنهم

يمـــيلون في كثير من تلك المقاربات إلى تحويل آراءهم إلى معادلات جبرية أو إحصاءات تعتمد الحاسب الآلي ، ومن يطلب منهم توسيع دوائرهم ليتبنوا منهجا صـــوفيا ، تصل شفافيته حدا لتوحيد مع العمل المنقود ، كأنما يطلب منهم تغيير وجوههم استبدال عقولهم .

إن أزمة الأسلوبية لا تقف عند حد هذه الاستخدامات الإحصائية والرياضية ، بـــل تجاوزتهـــا إلـــى عدم التوفيق بين الملامح النظرية والأساليب الإجرائية أو التطبيقـــية ، فـــثمة شرخ كبير بين ما تعد به الأسلوبية على المستوى النظري، وما تطمـــح إليه على المستوى الإجرائي، وقد تفـــطن عبد السلام المسدي إلى هـــذه المفارقة العجيبـــة :« فالأسلوبية تحتاج اليوم أكثر من أي علم آخر إلى أن يوفق فيها بين نتائج النظر وثمرات التطبيق توفيقا كاملا. فكم اليوم من منظر لم يؤسس نظريته فـــي الأســـلوب على تطبيق أجراه وكم من ممارس للنصوص، تجد في عمله من النزعات ما يغنم أن يتوج بنظرية في الأسلوب. وإن التوفيق بين هذا وذاك من شأنه أن يهـــدأ اندفـــاع الأول إلى ممارسة الأسلوبية، ويحرر احتراز الثاني منها، فيؤول الاثنيـــن إلى الإفادة من العلم معا، وإفادة العلم منهما» [13]، وأرى أن القضية ليست قضية توفيق بين ما هو نظري وتطبيقي فحسب، وإنما القضية تكمن أساسا في عدم تمكن المحلل الأسلوبي، من تلك المصطلحات اللسانية الوافدة في عملية فحص النص باختلف الطرق والمستويات الصوتية والصرفية والنحوية والسياقية والدلالية، من أجل اقتحام معقل النص اقتحاما مشروعا.

إن عدم التوفيق بين الأطر النظرية والإجرائية في تحليلات الأسلوبيين كثيرا ما يقودهم هذا الدأب إلى الحياد عن ملامح الأسلوبية والدخول في معقل اتجاهات نقدية أخرى . ومثالنا عن ذلك صلاح فضل في مقاربته لـــ:« أساليب

الشعرية المعاصرة » فهو:« لم يكتف باستخدام تقنيات التحليل الأسلوبي أو البنائي المستندة ، بالدرجة الأولى إلى علم اللسان والبلاغة ، بل تجاوزها إلى السيميولوجيا التأويلية ، واستيعاب الأفق اللغوي للظاهرة الأدبية ، و يبدو لي أن هذه الدراسة محك تجريبي لتطبيق مقولات « علم النص الحديثة التي تنبع من ضرورة ربط المعرفة التجريبية المستمدة من النصوص ذاتها ، بإطار نوعي يستوعبها ويرشد خطواتها.» (14) ، هذه المقاربة إذن هي هجين نقدي يتطفل على هذا وذاك من دون أن يتخذ لنفسه استعارة نقدية أو موصوفا منهجيا تنطوي تحته ظلال ومظلته أو قبعته المزيفة.

ختاما لما تقدم يمكن القول إن الأسلوبية قد شهدت أزمة خطيرة مست جانبها النظري مثلما مست جانبها الإجرائي . وقد تمظهر ذلك في غياب ملامحها في غمرة الاتجاهات النقدية الأخرى ، الشيء الذي أفقدها صفة الموصوف المنهجي يضاف إلى ذلك إتكاؤها على الإحصاء وعلى علوم أخرى غير علم اللسان ، وتجلى العجز في عدم تمكن أصحابها من تلك الآيات النظرية ، كما اقترحها مؤسسوها ، الشيء الذي أحدث شرخا كبيرا بين هذه الأطر النظرية والأطر الجمالية للنص من حيث هي مقتضى نقدي يراهن بالكشف عن المساحة الجمالية لعالم النص كل هذه المزالق أدت إلى أفول نجم الأسلوبية.

1) يـــنظر: يوسف وغليسي : اشكالات المنهج والمصطلح في تجربة عبد لك مرتاض النقدية (رسالة ماجستير)، معهد اللغة و الأدب العربي ن جامعة توري ، قسنطينة ، 1996 ، ص 134 .

2) المرجع نفسه ، ص 134

3) سعد مصلوح : الأسلوب، دراسته لغوية إحصائية ، كلية الآداب ، جامعة اهرة ، ط3 ، 1992 ، ص 16 .

4) المرجع نفسه ، ص 21 .

5) محمد عزام : الأسلوبية منهجا نقديا ، دار الآفاق ، بيروت ، لبنان ، ط ، 1989 ، ص 56 .

6) الصادر عن ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، 1988 .

7 يوسف وغليسي : اشكالات المنهج والمصطلح في تجربة عبد الملك مرتاض ص 139 .

8 ينظر: رولان بارت : درس في السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن العالي، دار تبقال للنشر والتوزيع، المغرب، 1986، ص 82 – 87 .

9 عبد السلام المسدي : الاسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، دن ، ط1 ، 1977 ، ص 115.

10) ينظر: عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط ، 1983 ،

. 96 – 88 .

(11) بـــيار جيرو : الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط1 ، د.ت ، ص 86 ، 87 .

(12) يـــنظر: سمير سعيد : مشكلات الحداثة في النقد العربي . دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، 2001، ص 196 – 202 .

(13) عبد السلام المسدي: قضية البنيوية ، دراسة ونماذج ، منشورات دار أمية ، تونس ، ط1 ، 1991 ، ص115.

(14) بشرى موسى صالح : " المنهج الأسلوبي في النقد العربي " ، مجلة علامات ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، السعودية ، مج 10 ، ج 40 ، جوان 2001 ، ص 305 ، 306